مجلة جامعة الملك سعود، م 25، الآداب (2) ، ص ص 265-298، الرياض (2013م/ 1434هـ)

سؤال الأعشى بشعره: تحقيق الأولية وتحليل الدوافع

سعد بن عبدالرحمن العريفي

استاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

(قدم للنشر في 11/ 1/ 1433هـ وقبل للنشر في 24/ 6/ 1433هـ)

الكلمات المفتاحية: الأعشى، الشعر الجاهلي، المديح.

ملخص البحث: يناقش هذا البحث المقولة الشهيرة لابن سلام التي حكم فيها على الأعشى بأنه أول من سأل بشعره، محاولاً النفاذ إلى جذور المقولة والقائل للتحقق من صحتها، ومدى موضوعية ابن سلام فيها، وهل كان للنزاع بين البصرة والكوفة أثر فيها بالنظر إلى أن ابن سلام بصري والأعشى شاعر أهل الكوفة المقدَّم؟ وبعد ذلك يفتِّش هذا البحث في تاريخ الشعر والشعراء المدّاحين للنظر إن كان أحد من الشعراء السابقين على الأعشى قد سأل بشعره، وذلك بهدف تحقيق قضية السؤال بالشعر هل هي موجودة قبل الأعشى أم معه؟ ويتوقف البحث عند قضية السؤال بالشعر لاختبار مدى تحققها في شعر الأعشى، والنظر هل كان يسأل المال صراحة أم يكتفي بالتعريض به؟ ويوظف البحث الناحية الإحصائية في حساب نسبة مدائح الأعشى إلى مجموع قصائد ديوانه، ويقارن ذلك بدواوين بعض الشعراء المدّاحين للنظر هل كان المديح هو اللون الطاغي على شعر الأعشى؟ وبعد ذلك يناقش البحث دوافع المديح عند الأعشى ويربطها بناحيتين وهما :طبيعة النفس البشرية، وطبيعة البيئة التي كان الأعشى يعيش فيها. وفي نهاية البحث يطرح الباحث تساؤلاً عن سبب عدم ظهور أي أثر للأموال المكتسبة من المديح على الأعشى، وعن سر عدم حظوته عند ممدوحيه من الملوك والوجهاء كما هو شأن الشعراء المدّاحين عادة ولاسيما من سبقوه كالنابغة وزهير وطرفة والمتلمِّس، محاولاً تقديم تفسير لذلك.

حَكَمَ محمد بن سلام الجمحي في سياق حديثه عن أفراد الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية على الأعشى الشاعر الكبير بقوله: "وكان أول من سأل بشعره، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه" (ابن سلام، د.ت : 65) وبهذا الحكم اقترنت شخصية الأعشى بصورة السائل بكل ما في هذه الصورة من معاني الضعة وسقوط الهمة، فلم ينفك تلقي الأعشى وشعره عن هذه الدلالات الحافّة بكونه سائلاً بشعره، بل وكونه "أول من سأل بشعره"، ما يعني ضمنياً أنه هو فاتح هذا الباب المقيت على ساحة الشعر العربي كله وحامل لوائه، ثم لحق به الشعراء من بعده، فصار – بحسب حكم ابن سلام – كل من سأل بشعره إنما يسير على درب قد مهده الأعشى من قبله وذلّله للسائرين عليه.

وفي هذا الشأن، لابد من وقفة تحليل ونقد تفحص الواقع وتمحص التاريخ في تلك المدة المتقدمة من تاريخ الشعر العربي للنظر في مدى صحة حكم ابن سلام على الأعشى، ولاسيما أن بعض الأحكام لا يكون مستندها الحجة أو الدليل، بل الانطباع، أو الاختلاف، أو عدم الرضى، أو غير ذلك من الأسباب التي تحيد بالحكم عن جادة الحق. ويتضاعف ضرر مثل هذه الأحكام حين تصدر من علماء كبار فتُتلقّى من بعدهم بوصفها حقائق ثابتة لا تقبل الجدل، ولا يجوز في مثلها التمحيص والنظر، فيأخذ ورثة التراث العلمي حكم ذلك العالم ،فيصنفون بمقتضاه الشعراء أو غيرهم ممن صدر بحقهم، فإما أن يرفعوهم أو يضعوهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتفتيش في مدى دقة الحكم ودوافعه.

وهنا ستكون مناقشة حكم ابن سلام من ناحيتين: الأولى انتماء ابن سلام نفسه وتوجهاته. والناحية الأخرى التاريخ، والمعني به التاريخ الشعري تحديداً. أما الأولى فيكفي فيها كتاب ابن سلام نفسه (طبقات فحول الشعراء) الذي ساق فيه حكمه على الأعشى، إذ يظهر فيه ما يوحي أن دافعه لاتهام الأعشى بأنه أول من سأل بشعره هو الصراع العلمي بين البصرة والكوفة، وهو الصراع الذي كان ابن سلام طرفاً فيه، حيث كان أحد أعلام البصرة وشيوخها الكبار، ونقرأ له مع استحضار جو ذلك الصراع وتجاذباته بين علماء المدينتين قوله بعد إيراده أسماء الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية التي كان الأعشى واحداً فيها : "أخبرني يونس بن حبيب : أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى..." (ابن سلام، د.ت : 52). وكان يونس من علماء البصرة الكبار، وإمام النحو فيها، "وكانت

حلقته بالبصرة ينتابها الأدباء وفصحاء العرب وأهل البادية" (ابن خلكان، د.ت : 7/ 244).

وفي موضع آخر من كتاب ابن سلام يروي خبراً نصه: "أخبرني المسيب بن سعيد عن هشام بن القاسم مولى بني غُبر ... وكان من عِلْية أهل البصرة ... قال: أول من سأل بشعره الأعشى" (ابن سلام، د.ت : 66-67)، فهذا نص ثانٍ يرويه ابن سلام عن أحد رجال البصرة المناوئة للكوفة التي يفضل أهلها الأعشى. وهناك خبر منقول عن الأصمعي برواية أبي حاتم السجستاني يؤكد ميل علماء الكوفة للأعشى، يقول فيه: "وأخبرني الأصمعي قبل هذا أن أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحداً" (السجستاني، 1991 : 113)، فهذه النصوص ترجح - فيما يظهر - أن الخلاف بين الطرفين كان هو الدافع لاتهام الأعشى بأنه أول من سأل بشعره للغض من مكانة الكوفة والإسفاف برأي أدبائها وعلمائها في تفضيلهم شاعراً يُعدّ أول من سأل بشعره بحسب رأي خصومهم أهل البصرة. وما دام الأمر كذلك ،فإن الحكم على الأعشى بفتح باب السؤال على الشعر يظل حكماً مفتقراً إلى تمحيص بسبب تدخل العوامل الذاتية والانتماءات العلمية والجغرافية في صياغته، ولا بد لقبوله من صدوره عن نظرة موضوعية منصفة بريئة من العوامل والمؤثرات غير العلمية.

وقبل تجاوز هذه الناحية، وهي الناحية الأولى من ناحيتي مناقشة حكم ابن سلام على الأعشى، يُستحسن الوقوف قليلاً عند البناء الأسلوبي الذي صاغ فيه ابن سلام (البصري) حكمه ذاك لتأمل إيحاءاته غير المنطوقة، إذ قال: "وكان أول من سأل بشعره الأعشى، ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه" (ابن سلام، د.ت : 65)، إذ يُلحظ في هذه الصياغة بناؤها على صيغة تحمل طابع الانتقاص من الأعشى، والتقليل من شأنه، بل وربما الاستهجان ما دام يسأل بشعره، والإقصاء عن منزلة أهل طبقته من ناحية الجودة الشعرية بدليل عدم شيوع شعره على أفواه الناس، وهو ما يُعدّ معياراً نقدياً للجودة عند النقاد الأوائل، ومع هذا الانحدار في جودة شعر الأعشى، بحسب رأي ابن سلام، وانحطاط همته بسؤاله الناس، فقد وضعه في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية قريناً لامرئ القيس وزهير والنابغة، مع أن أحداً لم يجبره على ذلك ،وإنما هو تصنيف ارتضاه، وهذا يشفّ عن اقتناع مكموم عنده في جودة هذا الشاعر واستحقاقه التقديم.

ويظهر أثر العصبية في حكم ابن سلام (البصري) أيضاً على الأعشى - شاعر أهل الكوفة - باتهامه إياه بأنه ليس له بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه،

ولا يستلزم الحكم على هذا الحكم بالخلل إلى كبير عناء، نظراً إلى أن شعر الأعشى إنما هو رائج عند أهل الكوفة أكثر منه عند أهل البصرة، وأبياته النادرة تدور على ألسنتهم أكثر من دورانها على ألسنة أهل البصرة أشياع امرئ القيس، ولذا فحكمه هذا صحيح إذا كان يقصد بـ (أفواه الناس) أفواه أهل البصرة، أما في سواها فإنه سيجد له أبياتاً نادرة سائرة. ويتأكد القول بأن ابن سلام إنما كان يعني أهل مدينته البصرة بالنظر إلى أنه لم يورد لأحد من أفراد هذه الطبقة أبياتاً نادرة سوى لامرئ القيس فقط، الشاعر المقدم لدى أهل البصرة، حتى بلغ مجموع ما ساقه له تسعة عشر شاهداً ما بين بيت مفرد أو مجموعة أبيات، مع إهمال تام لأقرانه من شعراء هذه الطبقة وكأن شعرهم لا يرقى منه شيء للاستشهاد به. وإنما كان علوق أبيات امرئ القيس في ذاكرة ابن سلام بسبب كونها دائرة بين أهل مدينته البصرة، وفي حلق العلم بمساجدها ودورها. ولذلك فإن ما يُلمح من هذه المؤشرات على عصبية ابن سلام للبصرة وشاعرها المقدم عند علمائها امرئ القيس، والرغبة في الغض من مكانة الكوفة وشاعرها المقدم لدى علمائها الأعشى، ربما تكون هي الدافع لحكمه عليه بأنه ليس له بيت نادر سائر بين الناس، ولذا يكون أخذ هذا الحكم على أنه حقيقة مسلمة أمر لا يستقيم مع الاشتراطات العلمية.

وبتصفح أيٍّ من مصادر اللغة والشعر والأدب التي صنفها العلماء العرب الأوائل نجد للأعشى حضوراً لافتاً فيها ما بين استشهادات بشعره، أو نماذج مستحسنة له، فهذا ابن قتيبة، المعاصر لابن سلام، حين ترجم للأعشى ساق أطرافاً من شعره صدرها بقوله: " ويُستحسن له.." أو : "وأحسن ما قيل.. قوله" (ابن قتيبة، 1966 : 264-266). وفي مصنف آخر لابن قتيبة – وربما يحسن تكرار الإشارة إلى كونه معاصراً لابن سلام – يورد كمّاً غزيراً من شعر الأعشى بلغ عدد شواهده مئة وواحداً وثلاثين شاهداً ، توزعت ما بين نماذج مستحسنة على معانٍ شعرية، أو شواهد على مسائل أو ألفاظ لغوية، وهذه الدراسة معنية بالأولى لا الثانية، وكان عدد ما أورده من شواهد لامرئ القيس أقل مما أورده للأعشى (يُنظر: ابن قتيبة، 1949). فكيف غاب شعر الأعشى هذا كله عن ابن سلام، وهو إنما كان شائعاً بين علماء عصره؟ وكيف يمكن معه قبول قوله في الأعشى : "ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه". وهذا ابن رشيق ينقض ذلك بقوله : "كان الأعشى أسير الناس شعراً ، وأعظمهم فيه حظاً، حتى كاد ينسى الناس أصحابه المذكورين معه وقبله: زهيراً والنابغة وامرأ القيس" (ابن رشيق، 2000 : 844).

وإلى جانب هؤلاء العلماء يظهر أبو هلال العسكري مهتماً بالأعشى في مصنفه ديوان المعاني بالنظر إلى عدد الأبيات السائرة النادرة التي أوردها له مصدِّراً كل شاهد يورده بالقول: وأجود، أو: وأحسن، أو: وأبلغ، أو غير ذلك من الأوصاف التي تثبت جودة شعر الأعشى وسيرورته على أفواه الناس (يُنظر: العسكري، د.ت : 1/ 24، 44، 79، 109، 171، 244، 258، 319، 328، 2/ 12). ولا يخلو مصنف في الأغلب لأحد علماء العربية الأوائل من شعر للأعشى يسوقه المصنفون استحساناً له أو استشهاداً به، وهذا يثبت قدر حضوره الشعري وكثرة دوران أبياته بين الناس، وهي المسألة التي أنكرها ابن سلام أو حكم بخلافها لدوافع تغلب عليها فيما يظهر عوامل غير موضوعية.

وتظهر ملامح العصبية أيضاً عند ابن سلام عبر تتبّع حديثه عن شعراء الطبقة الأولى التي جعل فيها كلاً من امرئ القيس شاعر علماء مدينته البصرة، والأعشى، شاعر خصومهم أهل الكوفة، حيث يحرص بكل وجه على تفضيل امرئ القيس وتقديمه، والتشكيك في أي قول يخالف ذلك، فقد أورد خبراً عن الفرزدق يقول فيه حين سُئل: مَن أشعر الناس؟ فقال: ذو القروح، يعني امرأ القيس (ابن سلام، د.ت: 152-153). أما حين يكون أشعر أهل الجاهلية شخصاً آخر غير امرئ القيس فإن ابن سلام يعمد إلى انتقاص الحكم وتسفيهه، يتجلى هذا في قوله: "وأخبرني يونس كالمتعجب أن ابن أبي إسحاق كان يقول: أشعر أهل الجاهلية مرقش، وأشعر أهل الإسلام كثيِّر. ولم يُقبل هذا القول ولم يُشيَّع" (ابن سلام، د.ت : 52). ويترجح أن الجملة الأخيرة في هذا القول هي من كلام ابن سلام لا من كلام يونس الذي لم يكن يؤمن هو الآخر بهذا الحكم ولذا ساقه (كالمتعجب) أي المنكر لما فيه، ومن البدهي أن يكون هذا موقفه منه وكذا موقف ابن سلام ؛لأن فيه تفضيلاً لشاعر آخر على امرئ القيس، وهو ما لا يقبله البصريون.

أما حين يكون الحديث عن الأعشى، فإن الغض من مكانته ومن رأي أهل الكوفة في تقديمه هو الميسم الذي يبدو بجلاء في مرويات ابن سلام أو أقواله، فها هو يروي خبراً عن شعيب بن صخر يقول فيه: "سمعت عيسى بن عمر ينشد عامر بن عبدالملك لزهير أو النابعة، فقال: هذا والله لا قول الأعشى:

لسنا نقاتل بالعِصِيِّ ولا نرامي بالحجارهْ " (ابن سلام، د.ت : 54).

فهذا الخبر يوحي أنه لا يهدف إلى شيء غير النيل من الأعشى وانتقاص بيته هذا، حتى إنه لم يحقق أكان

الشعر المنشَد لزهير أم للنابغة؟ ولم يسُقْ راوي الخبر الشعر المعني حتى تمكن الموازنة بينه وبين بيت الأعشى للوقوف على قدر التميز في الشعر المثال الذي سقط عنه بيت الأعشى؛ لأن هذا كله فيما يظهر ليس هو المراد، بل المراد انتقاص الأعشى الذي ينسحب بالضرورة على انتقاص مشيعيه من أهل الكوفة، ويترجح هذا بمعرفة أن الشخصيتين في الخبر هما بصريتان من جماعة ابن سلام.

وجاء في خبر آخر أيضاً عند ابن سلام يحركه فيما يبدو الانتماء إلى البصرة والانتصار لرأي علمائها، ما نصه: "وأخبرني أبان بن عثمان البجلي قال: مرَّ لبيد بالكوفة في بني نهد فأتْبعوه رسولاً سؤولاً يسأله: مَن أشعر الناس؟ قال: الملك الضليل. فأعادوه إليه، قال: ثم من؟ قال... " (ابن سلام، د.ت : 54)، ففي هذا الخبر انتصار لامرئ القيس بين أهل الكوفة وعلى أرضها، وغض من مكانة شاعرها الأعشى الذي كان يؤمل أهل الكوفة من لبيد أن يجعله أشعر الناس لكنه لم يفعل، بل حكم لشاعر علماء البصرة امرئ القيس عند أهل الكوفة. وربما يكون في تعمّد إيراد المكان الذي كان فيه لبيد وهو الكوفة غاية تتمثل في الرغبة في انتقاص شاعر علمائها وهو الأعشى والغض من رأيهم فيه، علماً بأن هذا الخبر الهادف إلى تفضيل امرئ القيس ليس بحاجة إلى ذكر الكوفة، فهو مكتمل بدونها، لكن إدراجها في سياقه ربما يغذي غايات في نفس ناقله تحمله عليها دوافع الخصومة والخلاف والرغبة الطبيعية في إسقاط الخصم، بدليل ورود هذا الخبر عند ابن عبد ربه في العقد الفريد دون أي إشارة إلى الكوفة (يُنظر: ابن عبد ربه، د.ت : 5/ 255).

وحين كان ابن سلام يسوق حجج المتعصبين لكل شاعر من شعراء الطبقة الأولى كان هناك ملمح لافت في الحجة التي نقلها عن المتعصبين للأعشى خاصة، حيث لم يذكر عنهم من علل تفضيلهم إياه سوى جانب واحد فقط هو الجانب الكمي، فبسبب كثرة شعره صار مقدماً عندهم، وهذا ما لم يكن في العلل التي ساقها لتفضيل أقرانه من شعراء طبقته، حيث كانت الناحية الفنية والتمكُّن من القول الشعري والافتنان فيه حاضرة لإثبات كفاءة الشاعر وأهليته للتقديم، في الوقت الذي لا يجد فيه جماعة الأعشى – أهل الكوفة – شيئاً يحملهم على تقديمه غير كثرة شعره، وهذا انتقاص ضمني من ابن سلام للأعشى ومشيعيه بوضعه في هذه الصورة المهتزة الهزيلة التي يزداد شحوبها وتأخرها بمقارنتها مع الصور المكتملة الجليلة التي وضع فيها أقرانه من شعراء طبقته، وهو الأمر الذي يحمل على الرضى عن شعرهم وأهليتهم

للتقديم، فيما لا يجد قارئ حجج جماعة الأعشى سبباً مقنعاً لتفضيله، مع عراقته الشعرية وإقرار ابن سلام نفسه بذلك بدليل وضعه إياه في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، غير عامل الكثرة، ولعل جو الخصومة مع أهل الكوفة الذي كان يعيشه ابن سلام، والتعصب للبصرة ورأى علمائها هو سبب الوقوع في مثل هذا النمط من التصنيف.

ومن شواهد العصبية للبصرة وأهلها ما يبدو في منهج ابن سلام في سوق الأخبار وتوجيهها نحو خدمة غايات تبدو غير موضوعية، كقوله: "مرَّ لبيد بالكوفة في بني نهد، فأتبعوه رسولاً سؤولاً يسأله: من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل. فأعادوه إليه، قال: ثم من؟ قال: الغلام القتيل ..." (ابن سلام، د.ت : 54). فواضح من هذا الخبر انتصاره لشاعر البصرة امرئ القيس على أرض الكوفة المتعصبة للأعشى وبين أهلها، وهذا أمر مضى الحديث فيه سابقاً، وهنا أمر ثانٍ يستوقف المتأمل في الخبر وهو إشارته إلى أن لبيداً كان مروره في بني نهد، وهي قبيلة اشتكى الشاعر عروة بن الورد من انتساب أخواله إليها، وعدّ ذلك عيبه الوحيد في شعر له (يُنظر: ابن الورد، 1995 : 74). وكذلك يظهر في الخبر أن الرسول الذي بعثه الكوفيون ليسأل لبيداً كان رسولاً (سؤولاً) بهذا الوصف الذي تلفه إيحاءات الانتقاص والسلبية. هذا بالإضافة إلى وضع ابن سلام الرسول الكوفي في قالب من البلاهة وقلة الفهم باحتياجه إلى التلقين مراراً من مرسليه، وكأن قدراته العقلية لا تساعده على السؤال عن التالي للأول ليرجع إلى قومه بجواب تام مع أنه (سؤول) كما نعته ابن سلام، إلا أن هذا الوصف لم يكن له حضور في حواره مع لبيد. ولعله لا يخفى أن هذه الإشارات الثلاث في الخبر وهي المكان (الكوفة)، والقبيلة (بنو نهد)، وصفة الرسول (سؤول)، لا تضيف شيئاً إلى فحوى الخبر، وأن إسقاطها منه لا يؤثر فيه، ولكن إثباتها – مع أنها حشو– غير مفيد إنما كان – فيما يُرجَّح – للغضِّ من الكوفة والكوفيين.

وبموازنة هذا الخبر مع خبر مشابه يسوقه ابن سلام في رجل دخل البصرة، كما دخل لبيد الكوفة، يظهر جلياً حرصه على تقديمه في قالب آخر مختلف تماماً عن الخبر الأول بهدف الرفع من شأن مدينته وأهلها، يقول: " أخبرني أبو عبيدة أن ابن داوُد بن متمم بن نويرة قدم البصرة ... فأتيته أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، ... فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله" (ابن سلام، د.ت : 47–48).

بتأمل هذا الخبر تظهر فيه إشارات إلى تفوّق البصرة ورجالها من ثلاث نواحٍ: الناحية الاجتماعية، والناحية الأخلاقية، والناحية العلمية. أما الأولى والثانية فتتجسدان في مبادرة الرجلين البصريين إلى الوقوف مع ذلك الرجل الغريب عن البصرة لمساعدته في شأنه وإمضاء حاجته، إذ جاء في الخبر: (وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته)، في حين لم يردْ في خبر ابن سلام المروي عن الكوفة أن أهلها أعانوا الرجل الغريب عليها حين دخلها - وهو لبيد - أو أكرموه، أو أصلحوا من شأنه، مع ضرورة التنبيه هنا إلى عظيم الفرق في المنزلة بين ضيف الكوفة وضيف البصرة، فلبيد أحرى بالحفاوة والاهتمام والإكرام، ومع ذلك لم يصنع له الكوفيون شيئاً حسب ما جاء في الخبر، في حين اعتنى البصريون بمن هو أقل منه مكانة، فكيف سيكون صنيعهم لو كان الداخل عليهم لبيداً؟

والناحية الأخيرة في خبر ابن سلام المروي عن البصرة، تتجلى في الإشارة الضمنية إلى التفوق العلمي لدى رجال البصرة وقدرتهم على تمييز الشعر ومعرفة صحيحه من منحوله، فبعد أن شرع ابن متمم في الزيادة على شعر أبيه تنبه الرجلان البصريان لذلك، فقد جاء في الخبر: "وإذا كلام دون كلام متمم ... فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله"، وفي هذا إعلاء من المكانة العلمية لعلماء البصرة وإشادة بصفاء حاستهم النقدية، في حين لا تبدو أي إشارة إلى ذلك في خبر ابن سلام المروي عن الكوفة، إذا ليس فيه سوى تلقٍ مجردٍ لإجابة عن سؤال دون مناقشة أو تعليل للتفضيل الوارد فيه، مع إغفال تام لأسماء الشخصيات في الخبر، وتصريح بها في خبر البصرة.

أما كون الأعشى هو أول من سأل بشعره - حسب حكم ابن سلام وغيره من شيوخ البصرة - فهي قضية بحاجة إلى تحقيق عبر مساءلة التاريخ الشعري، وتصفح سير الشعراء الأوائل السابقين على الأعشى، والنظر في أقوال علماء اللغة فيهم للتثبت من مدى صحة هذا القول. وأصرح ما نجده في سياق تحقيق هذه القضية قول ابن رشيق: "وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك، وقبل الصلة على الشعر ... فسقطت منزلته، وتكسَّب مالاً جسيماً، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيه من عطاء الملوك" (ابن رشيق، 2000 : 119). ومعلوم أن النابغة سابق تاريخياً على الأعشى بزمن يصل إلى ربع قرن، إذ كانت وفاة النابغة في سنة (18 ق هـ) أما الأعشى فتوفي في السنة الثالثة بعد الهجرة، وقيل السابعة.

والواقع أنه لا يُدرى ماذا يعني ابن رشيق تحديداً

بقوله في النابغة إنه "سقطت منزلته" بعد تكسبه بالشعر، فهو لم يزل أثيراً مقدماً عند الملوك، فقد كان يكرمه الملك النعمان بن المنذر، وكذا ملوك غسان، بدليل قول ابن قتيبة فيه أنه كان "مع النعمان بن المنذر، ومع أبيه وجده، وكانوا له مكرِمين" (ابن قتيبة، 1966 : 164). وفي نص أكثر دلالة على عظيم منزلته لا سقوطها يقول أبو الفرج الأصبهاني: "إن النابغة كان كبيراً عند النعمان، خاصاً به، وكان من ندمائه وأهل أنسه" (الأصبهاني، 1994 : 11/ 8). وكذلك كان عند ملك غسان عمرو بن الحارث بن أبي شمر، إذ لم يزل مقيماً عنده حتى مات عمرو (الأصبهاني، 1994 : 11/ 13).

أما علو قدره في الشعر فيشهد به خبر عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وصفه فيه بأنه أشعر شعراء غطفان (الأصبهاني، 1994 : 11/ 5). وفي رواية : أشعر العرب (الأصبهاني، 1994 : 11/ 6). وكذلك خبر في المعنى نفسه مروي عن الأخطل في مجلس الخليفة عبدالملك بن مروان (يُنظر: ابن قتيبة، 1966 : 158).

ومما يشهد أيضاً بعلو منزلة النابغة الشعرية ما رواه الأصمعي بقوله: "كان النابغة يُضرب له قبة حمراء من أَدَم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها" (ابن قتيبة، 1966 : 167-168)، فهذه الخيمة تشهد بتفوقه الشعري وإقرار شعراء عصره له بهذا التفوق، بدليل قصدهم إياه لعرض أشعارهم عليه طمعاً في مدحه إياهم وثنائه على أشعارهم، حيث استقر الرأي على تقدمه في باب الشعر حتى صار حَكَماً فيه، وهو الأمر الذي صرح به النقاد الأوائل معلنين بأن النابغة أحسن شعراء عصره "دبياجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف [1] (ابن سلام، د.ت : 56).

أما النابغة بين قومه فقد كان جليل المنزلة مقدَّماً فيهم، بدليل ما كتبه له الملك النعمان بن المنذر لما تركه ومكث عند ملك غسان: "إنكَ صرتَ إلى قوم قتلوا جدي فأقمتَ فيهم تمدحهم، ولو كنتَ صرتَ إلى قومك لقد كان لك فيهم ممتنع وحصن" (ابن قتيبة، 1966 : 167). وسُئل أبو عمرو بن العلاء فيما يرويه عنه أبو عبيدة عن سر عودة النابغة للنعمان بعد تركه إياه، وهل خوفه منه كان الدافع إلى رجوعه إليه ومدحه إياه أملاً في رضاه عنه، فقال: " إن كان لآمناً من أن يوجه النعمان له جيشاً، وما كانت عشيرته

(1) الخبر نفسه رواه ابن قتيبة في الشعر والشعراء، ص 157، وساق في المصدر نفسه رواية أخرى عن أبي عبيدة في مزايا شعر النابغة، ص 168.

لتُسْلِمه لأول وهلة، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره" (الأصبهاني، 1994 : 11/ 21). ومما يؤكد هذه المنزلة له ما روته كتب التاريخ في قصده ملك غسان الحارث بن أبي شمر وجيهاً عن قومه ليتشفع عنده لإطلاق أسر بعض رجال بني أسد الذين أخذهم لاعتدائهم على أرض له (يُنظر: النابغة، د.ت : 49). وبنو أسد حين ذاك حلفاء لبني ذيبان، ومعلوم أن الوجاهة والشفاعة لا تكون إلا لذوي المنازل الرفيعة، ولا تُقبل إلا منهم.

وبهذه المرويات الأدبية والتاريخية يتضح أن سقوط منزلة النابغة التي حكم عليه بها ابن رشيق بسبب مديحه وتكسبه بالشعر لم تكن متحققة في النابغة لا على المستوى الشخصي ولا الاجتماعي ولا الشعري، وبذا لابد أن يكون لسقوط المنزلة هذا إن كان حقيقة علة أخرى غير التكسب بالشعر، على أن سيرة النابغة لا تؤيد ذلك. وبتقليب مدونات اللغة والأدب والتفتيش فيها عثرتُ على نص كان هو معتمد ابن رشيق في حكمه ذاك، إلا أنه خرج به عن سياقه فأودعه في سياق آخر تحول به المراد في النص الأصلي، ذلك أن ابن قتيبة قال في النابغة: "وكان شريفاً فغضَّ منه الشعر" (ابن قتيبة، 1966 : 164). ومثله قال الأصبهاني أبو الفرج: "وهو أحد الأشراف الذين غضَّ الشعر منهم" (الأصبهاني، 1994 : 11/ 5). وبهذا يتجلى أن سقوط منزلة النابغة التي حكم عليه بها ابن رشيق لم تكن بسبب التكسب بالشعر، ولا علاقة لهذا السبب بهذه النتيجة، وإنما كان السبب هو قوله الشعر، لأن أشراف العرب وذوي المكانة والرياسة منهم لم يكن الشعر لائقاً بهم ولا مقبولاً منهم، وقصة حجر الكندي في غضبه على ابنه امرئ القيس بسبب قوله الشعر مدوّنة مشهورة لأن حجراً الملك لم يكن يرى الشعر لائقاً به ولا بأهل بيته (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 61).

ولعله لا يفوت التنبيه على التفاوت الكبير بين قول ابن رشيق في النابغة " فسقطت منزلته" وبين ما ورد في النص الأصلي : " فغضَّ منه الشعر" إذ يحمل الأول دلالة سلبية تحف صاحبها النابغة بمعاني الذلة والصغار وتردِّي المكانة، في حين لا يتجاوز الفهم من النص الآخر حد الإشارة إلى نيل الشعر من النابغة دون المساس بشرفه أو علو منزلته. وهذا الاستطراد في مناقشة ابن رشيق في قوله على النابغة مهم لتعلقه بسياق هذا البحث، كما سيتبين لاحقاً.

وبالعودة إلى تحقيق مسألة أولية الأعشى في التكسب بالشعر، حسب حكم ابن سلام عليه، نجد بالإضافة إلى النص السابق لابن رشيق الذي جعل أول من تكسب بالشعر النابغة لا الأعشى، نصاً آخر

لابن رشيق أيضاً يردُّ فيه حكم ابن سلام ومن تبعوه دون تثبت منهم ولا استقصاء، محتجاً عليهم بعامل التاريخ، إذ يقول: "وأكثر العلماء يقولون: إنه [أي الأعشى] أول من سأل بشعره، وقد علمنا أن النابغة أسنُّ منه وأقدمُ شعراً، وقد ذُكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر ما فيه قبح ..." (ابن رشيق، 2000 : 120).

ويظهر على صفحة الشعر العربي القديم شاعر آخر كبير مشهور عُرف عنه المديح وتلقِّي العطاء عليه، وهو زهير بن أبي سلمى، المتوفى قبل الأعشى بسنوات عديدة تفوق الخمسة عشر عاماً، إذ كانت سنة وفاته (13 ق هـ)، ومع هذا السبق التاريخي في أخذه الجائزة على المديح إلا أنه لم يُجعل أولاً ولا ثانياً في السؤال بالشعر، بل تخطته أقلام النقاد لتقع على الأعشى المتوفى بعده بسنوات طويلة فتجعله هو أول من سأل بشعره. وبتصفح ديوان زهير يبدو واضحاً أن المديح علامة بارزة فيه، بل إن خير قصائد الديوان هي تلك المنظومة في هذا الباب، إذ يبلغ مجموع مدائحه تسع عشرة قصيدة كان النصيب الوافر منها لهرم بن سنان الذي مدحه بتسع قصائد جياد، ورثاه باثنتين، وذلك إعجاباً منه بموقفه الذي شاركه فيه الحارث بن عوف في الإصلاح بين عبس وذبيان واحتمال ديات قتلى الفريقين، وكان زهير يحسن له القول؛ لأن هرماً كان يحسن له العطاء، كما ورد في الخبر المروي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وأحد أولاد هرم (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 10/ 454).

ولعل جودة العطاء التي وجدها زهير من ممدوحه هرم بن سنان كانت هي الدافع لاستمراره في مديحه، حتى إن هرماً أقسم - فيما يروي أبو الفرج الأصبهاني- ألا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا يسلِّم عليه إلا أعطاه" (الأصبهاني، 1994 : 10/ 454)، ومع ذلك واصل مدائحه فيه حتى بلغت تسعاً، مع أن الموقف الذي لفته من هرم هو إصلاحه بين فريقين متنازعين، وكان الثناء على هذا الفعل مرة واحدة كافياً، إلا أنه كرر المديح وأكثر من الثناء فصدق فيه ما قال علماء صنعة الكلام في هذا الشأن بأن الإكثار من الثناء طريق من صناعتهم التكسّب (يُنظر: العسكري، 1986 : 157). ولا تتضح علة وقوع زهير في هذا الأمر مع كونه -كما يُروى- سيداً كثيراً المال حليماً معروفاً بالورع" (الأصبهاني، 1994 : 10/ 457)، إلا إن كانت كثرة المال ناتجة عن كثرة المديح.

ومن العجيب أن ابن سلام الذي حكم على الأعشى بأنه أول من سأل بشعره يروي عن أهل النظر

-كما يسميهم- قولهم في زهير إنه "أشدهم مبالغة في المديح" (ابن سلام، د.ت : 64)، وينقل عنه أبو الفرج هذا النص في ترجمته لزهير (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 10/ 461)، وما دام زهير يبالغ في المديح فإن المتوقع أنه سيتجاوز الحقيقة ويخلع على الممدوح ما ليس فيه من الفضائل والسجايا، لا حباً في مجاوزة الحقيقة، بل رغبة فيما تفضي إليه هذه المبالغة من الحصول على عطاء الممدوح. وربما يترجح صدق هذا القول باستقراء مدائحه في هرم بن سنان خاصة، إذ هي في عمومها خارجة عن الاكتفاء بمدحه بالصفة التي استرعت نظر زهير فأطلقت مدائحه فيه إلى مدحه بصفات أخرى يظهر فيها بلا عناء مغازلة العطاء ومراودة مال الممدوح حين يصفه بالكرم وكثرة العطاء والإحسان إلى كل سائل ومحتاج[2].

وفي القول المشهور المروي عن يونس بن حبيب تأكيد تخصُّص زهير في المديح وانطلاقه إليه بإغراء المال إلى ابتداع قصائد تعمل الرغبة في العطاء على تجويدها وتقويم ميلها وسنادها، إذ يقول: "أشعر الناس امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب" (الأصبهاني، 1994 : 9/ 75)، فالشخصية التي وُصفت بعمل المال فيها وتأثيره في تحريكها نحو القول الشعري هي شخصية زهير لا الأعشى، فالرغبة في العطاء تحرك زهيراً فيكون حينها أشعر الناس، أما الأعشى فيجوّد شعره (إذا طرب)، وديوان كلا الشاعرين يشهد على دقة هذا الحكم من يونس بن حبيب العالم بالشعر وبحور الشعراء.

وباستنطاق التاريخ الأدبي والبحث في سير الشعراء السابقين على الأعشى لاستظهار حضور المديح ذي الطابع التكسبي في مدونة أشعارهم ومدى صلتهم بالملوك وذوي الوجاهة والعطاء- تلفتنا كثرة هؤلاء الشعراء، وتثير لدينا تساؤلاً عن سر غيابهم - مع كثرتهم- عن ابن سلام وهو العالم المشهور؟ فهذا عمرو بن قميئة الشاعر، أحد فحول شعراء الجاهلية، كانت له علاقة بعمرو بن هند، وعلاقة أخرى بحجر بن الحارث الكندي. وأوس بن حجر كان متكسباً بمديحه، كثير التردد على اللخميين في الحيرة. والمتلمس الضبعي كان متصلاً بعمرو بن هند، ثم انتقل منه إلى الغساسنة. ومثله الحارث بن حلزة كانت له مكانة عند عمرو بن هند. وهذا المثقب العبدي كان يختلف إلى بلاط الحيرة، وإليها أيضاً كان يتردد عدي بن زيد. وكان المرقش الأكبر وعلقمة بن عبدة وحسان بن

(2) يُنظر في ديوانه القصائد الأربع التالية: ص 33 و 86 و 96 و145 .

ثابت ممن يغشون الغساسنة طمعاً في عطائهم (يُنظر: المناعي، 1998 : 388-389). أما زهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني فقد مرّت الإشارة إليهما. وكل هذه القائمة من الشعراء سابقة زماناً على الأعشى، وهذا يؤكد أنه لم يبتدع جديداً في الشعر العربي، ولم يشق فيه طريقاً بكراً، بل قد سار على طريق ممهد، مهده السابقون عليه من الشعراء، الأمر الذي يثبت أنه ليس بدعاً في سلوكه ولا في فنه. وكل هؤلاء الواردة أسماؤهم هم أعلام الشعر الجاهلي ورؤوسه، وكلهم قد طاف بشعره على الملوك وذوي الوجاهة، فأي جديد أتى به الأعشى حتى يكون هو أول من سأل بشعره؟!

وبهذا البيان التاريخي تترجح عدم صحة قول ابن سلام بأن الأعشى هو أول من سأل شعره، وهو القول الذي لم ينطق به أحد قبل ابن سلام، وإنما ردده بعض المصنفين والنقاد من بعده دون تمحيص[3]، في حين نجد ابن قتيبة، المعاصر لابن سلام، لا يُسنِد أولية السؤال بالشعر للأعشى إطلاقاً مكتفياً بالقول إنه كان يفِد على ملوك فارس وعلى ملوك الحيرة (يُنظر: ابن قتيبة، 1966: 258-259)، أي أن شأنه شأن كل الشعراء قبله ممن كانوا يختلفون إلى الوجهاء ويقصدون بلاط الملوك طمعاً في رفدهم. وهذه الموضوعية في حديثه عن الأعشى لم تكن حاضرة في حديث ابن سلام عنه بسبب أن ابن قتيبة لا تحركه في حديثه عن الأعشى عوامل خارجة عن نطاق الموضوعية كالعصبية والخصومات العلمية لأنه كان يسكن بغداد، وفيها أملى كل كتبه بعيداً عن جو الخصومة التي كان يعيشها ابن سلام في البصرة ضد الكوفة[4].

وبعد هذا البيان الذي جلّى حقيقة عدم صحة حكم ابن سلام على الأعشى بأنه هو أول من سأل بشعره، وبعد الوقوف على الدوافع التي حركت ابن سلام نحو ذلك الحكم، فإن مسار هذا البحث يسوق إلى استقراء ديوان الأعشى وسيرته وطبيعة المرحلة التاريخية التي كان يعيشها للوقوف على مدى حضور الحافز المالي في شعره، وكيفية استجابته له، مع ضرورة وصف المرحلة أولاً ؛لأن طابعها هو أحد المؤثرات الفاعلة في توجيه القول الشعري ورسم محدداته.

(3) يُنظر على سبيل المثال: الأصبهاني، الأغاني 9/ 76، والمرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ط، د.ت)، ص 325.

(4) يُنظر في ترجمة ابن قتيبة: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 42-44، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، د.ت)، 2/ 63-64.

لقد كان الأعشى – كما نعلم – يعيش في آخر المرحلة الجاهلية، وقد أدرك الإسلام وامتد به العمر حتى السنة الثالثة أو السابعة من الهجرة، وفي هذه المرحلة المتأخرة بدأت ملامح الانفصام بين الشعر والقبيلة تأخذ في الظهور، واتسعت حتى قاربت الاكتمال، وهي ملامح كانت قد بدأت قديماً مع الشعراء السابقين على الأعشى. والانفصام هنا يعني التحول في وظيفة الشعر من خدمة القبيلة إلى خدمة الذات، وكان قَدَر الأعشى أن يكون في المرحلة التي عرف الشعراء فيها قيمة الصنعة التي يتقنونها وقدْر العوائد التي يمكنهم التمتع بها في حال التفاتهم إلى تجويد صنعتهم وتوجيهها نحو المسارات التي تدر عليهم المال، ولاسيما أن الشعراء السابقين على الأعشى قد مهدوا الطريق له، وأزاحوا عنه حرج الانفصام عن القبيلة وتسخير الشعر للأغراض الفردية لا القبلية في مخالفة صريحة للعرف القبلي القاضي بأن الشعر ديوان القبيلة، وأن الشاعر هو المسؤول عن تسجيل أيامها وانتصاراتها ومآثرها وأنسابها، والذب عنها والافتخار لها وتهديد خصومها، وغير ذلك مما يهمها، وأي انحراف من الشاعر عن هذا المسار نحو نظم الشعر في موضوعات فردية فإنه يكون تمرداً على القبيلة، ومخالفة لنهجها، وإهداراً لطاقة القول الشعري فيما لا يعنيها.

وكان من حسن حظ الأعشى أنه نشأ في مرحلة قد تجاوز فيها الشعر هذا العَقْد القبلي فبات الشاعر حراً في صناعته يصرفها حيث يشاء، ومن شأن المدة الطويلة الفاصلة بينه وبين بدايات الشعر الجاهلي أن تُحدِث تحولات في القيم والمبادئ، وتضيِّق مساحة الممنوع وتوسِّع دائرة الحرية وتدفع نحو الانفلات من قيد الأعراف والتقاليد، وتخفض سلطة المجتمع ومبادئه، ولكل هذا كان الفضاء رحباً أمام الأعشى للتحليق بصناعته، وارتحال ناقته نحو الملوك وذوي الأخطار.

ولا حاجة إلى سؤال الأعشى أو أي شخصية غيره إن كان المال يمثل إغراء له، فالنفس البشرية، مهما كانت منزلتها وغناها أو فقرها مجبولة بالفطرة على حب المال، والبهجة به، والتماس أسبابه، وما دامت هذه الصفة في الأعشى بحكم بشريته، وما دامت طبيعة المرحلة التي يعيشها متحررة من القيود على الشعر، ومادام يمتلك موهبة فنية رفيعة، فإن المتوقع من وراء تصفح ديوانه العثور على اشتغال منه في فن المديح، وقصائد صنعها في هذا الباب بقصد إصلاح حاله المادية، والاستعانة بما يدرّه عليه مديحه في امتلاك عناصر الحياة الكريمة له ولأسرته، ولاسيما أنه غير معدود في أثرياء العرب، ولا في أشرافهم أو وجهائهم.

وإذا كانت منابع المال الكبرى تقع خارج حدود جزيرة العرب، بالإضافة إلى منابع أخرى أقل غنى تقع داخلها، فإن على الأعشى قصد تلك المنابع القصية أولاً، وهي الوجهات التي قصدها الشعراء قبله، ومنها حصلوا على عطاء وافر، ونعني إمارتي المناذرة والغساسنة، إلى جانب مملكة اليمن، وهذه المواضع كانت ذات فضل على الشعر العربي كله بزيادة كمه، وعلى الشعراء أنفسهم، فقد أغرتهم بقصدها وحفزتهم على قول الشعر الذي هو شرط للعطاء، وبقدر ما يكون تجويده تكون العطية، وهذا أثمر عن مضاعفة قوة نبع الشعر، وثراء المدونة الشعرية الجاهلية. كما أن لتلك الممالك فضلاً على الشعراء أنفسهم بمنحهم المال بأنواعه من الذهب والفضة والمراكب والمنسوجات التي صلحت بها أحوالهم وأزاحت عنهم هم الفقر وضيق العيش الذي كان طابع جزيرة العرب[5]، ولهذا وضع بلاشير في تأريخه للأدب العربي عنواناً وسمه بـ: (الآثار الشعرية القديمة التي ظهرت بتأثير جاذبية المراكز الحضرية) (يُنظر: بلاشير، 1998 : 324)، أي أن شطراً من مدونة الشعر الجاهلي إنما كان بسبب تلك المراكز وإغراء مال ملوكها الذي جذب الشعراء إليها وحفز موهبتهم على نظم الشعر والتفنن فيه، وبهذا يصدق القول بأن "إحدى الخصائص الهامة في تاريخ الشعر العربي أن قسماً كبيراً جداً منه نجم عن ظاهرة رعاية الشعراء بالمال، وأن البلاطات ومجالس الأغنياء الخاصة قد اضطلعت بدور فعال ذي مظهر كمي أولاً في حدوث الشعر وتعاظم كميته، وأن الشعر العربي كان في حاجة إلى المال ليكون وينمو ويزدهر" (المناعي، 1998 : 558).

ولا يوجد مؤشر دقيق يقيس مستوى استجابة الأعشى لجاذبية المراكز الحضرية غير ديوانه، لذا سيكون عدد قصائد المديح فيه، إلى جانب صور بنائها وقدر وضوح استحلاب العطاء فيها من الممدوحين هي الجوانب التي تكوِّن بيانات المؤشر وأرقامه.

يضم ديوان الأعشى ستاً وعشرين قصيدة مكتملة ثابتة النسبة له قالها في غرض المديح، وأبياتاً متفرقة أخرى قالها فيه تمثل مقطوعات صغيرة لا يتجاوز عدد أبياتها الأربعة أبيات، فإذا ما قارنا هذا العدد -ستاً وعشرين- إلى مجموع قصائد ديوانه البالغ ثنتين وثمانين قصيدة يتجلى أن المديح ليس هو الغرض الغالب على ديوان الأعشى، ولا على شخصيته بالطبع، لكون نسبة قصائد المديح إلى مجموع قصائد الديوان لا تتعدى (31,70٪) أي أن نصيب المديح من مجموع الديوان

(5) يُنظر على سبيل المثال عطاء سلامة ذي فائش للأعشى على قصيدة مدحه بها عند الأصبهاني، الأغاني، 9/ 86 .

كله لا يمثل سوى أقل من الثلث، هذا مع أنه كان يعيش في مرحلة تاريخية ذات طابع مشجع على الإسراف في المديح -كما سبق القول- وآلة المديح بيده، وهي آلة محكمة بالغة الجودة ستتحول بمعالم حياته لو انقطع إليها أو قارب إلى حياة رفيعة مرفهة بعيدة كل البعد عن ضيق العيش ونكده، فلا القبيلة في مرحلته التاريخية كانت تطالب شاعرها بما كانت تطالب به الشعراء الأوائل، ولا الطريق المفضي إلى منابع العطاء مجهول أو غير ممهد، فقد وطأه الشعراء السابقون كالنابغة وزهير وأوس وغيرهم، ورسموا له طريقاً واضحاً لا يتطلب منه سوى شحذ آلته ووضع قدمه عليه، ولكن مع كل تلك المهيئات، والتعلق الفطري بالمال والتفتيش عن أسبابه، لم ينقطع الأعشى للمديح، ولو فعل لكان مستجيباً لموج المرحلة التي يعيشها، ولرغباته الفطرية أيضاً، إلا أنه وجه شطراً كبيراً من شعره نحو الأغراض التقليدية كالهجاء والعتاب اللذين صنع فيهما ثمانياً وعشرين قصيدة، والوصف الذي نظم فيه أربعين قصيدة، والغزل الذي افتتح به إحدى وأربعين قصيدة افتتاحاً يمكن أن يُعدّ قصائد مستقلة، لأنه في عدد من المواضع يمتد ليغطي عشرين بيتاً من القصيدة، أما المديح في ديوانه فإنه لم يصل إلى أي واحد من هذه الأعداد الواردة في هذه الأغراض.

وإذا كانت منابع العطاء واقعة خارج حدود جزيرة العرب - كما مرّ- فإن من البدهي أن يسلك الأعشى الطريق نحوها، وهذا ما يؤكده ابن رشيق، الذي شكَّك في كونه أول من سأل بشعره - كما تقدم القول - يقول في هذا السياق: "فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجهز به نحو البلدان، وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته ..." (ابن رشيق، 2000 : 120).

والمعنى نفسه يرِدُ عند باحث معاصر وصف الأعشى بأنه" من الشعراء المتنقلة الذين أكثروا من الأسفار، وتنقلوا من مكان إلى مكان "، ثم فصَّل هذا بقوله: " رحل الأعشى إلى الغساسنة ملوك عرب الشام، وإلى المناذرة ملوك عرب العراق، وإلى قيس بن معد يكرب، وإلى ذي فائش في اليمن، وإلى بني الحارث بن كعب في نجران، فمدحهم ونال عطاءهم، وأقام عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي" (جواد علي، 1993 : 9/ 92-93). وهذا التطواف الواسع من الأعشى هو الموقف المتوقع من شاعر بيده آلة تحصيل المال والدروب أمامه مطروقة ممهدة.

وإذا كانت المدونة الشعرية لم تحفظ للشعراء المداحين قبل الأعشى الذين أثبت التاريخ قصدهم الملوك بالشعر- شعراً وفيراً في المديح، فصار الأعشى

بذلك هو أكثرهم قصداً للملوك وأخذاً للمال على شعره بسب كثرة شعره المحفوظ مقارنة بما حُفظ لغيره، فإن المرجح أنهم قالوا شعراً هادفاً للعطاء أكثر مما وصلنا بكثير، إذ ليس من المعقول ألا توجد في ديوان زهير بن أبي سلمى سوى سبع عشرة مدحية، وفي ديوان النابغة سوى ثماني عشرة[6]، ولم يُحفظ في ديوان أوس بن حجر سوى أربع مدائح[7]، وفي ديوان المتلمس الضبعي لا توجد في باب المديح إلا قصيدتان اثنتان فقط[8]، وكذلك لا يوجد في ديوان المثقب العبدي سوى ثلاث قصائد فقط قالها في المديح[9]، وفي ديوان عمرو بن قميئة لا توجد سوى قصيدتين اثنتين فقط نظمهما في هذا الفن[10]، وهؤلاء كلهم ممن طافوا بشعرهم على الملوك ومدحوهم واتصلوا بهم.

والسؤال المشروع في هذا السياق هو: هل من المعقول أن يصل كل هؤلاء إلى بلاط الملوك، ويقفوا بين أيديهم مادحين، ويذوقوا حلاوة العطاء، ثم يمسكوا عن الاستمرار على هذا الطريق مكتفين بقصيدتين أو ثلاث؟ إن الرغبة الفطرية في المال تحمل على الاعتقاد بأن أولئك الشعراء اجتهدوا في المديح، وطرقوا كل أسبابه، وقالوا كثيراً من الشعر الهادف إلى استدرار العطاء، إلا أن ذاكرة الزمان لم تحفظ أشعارهم فضاعت فيما ضاع من تراثنا الشعري، وهذا التخريج بالضياع يسنده قول أبي عمرو بن العلاء فيما يرويه عنه يونس بن حبيب: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير" (ابن سلام، د.ت : 25).

إذن قلة المدائح في دواوين أولئك الشعراء لا ترجع - فيما يُرجَّح- إلى تعففهم عن السؤال، أو زهدهم في المال وهم عرب الجزيرة المصطلون بحرها وشظفها، بل يرجع إلى ضياع ما قالوه في باب المديح، وخصوصاً أنهم بعيدون زمنياً عن عصر الإسلام الذي بدأ التدوين في نهاية قرنه الأول، خلافاً للأعشى الذي مات بعد الهجرة، فربما كان هذا أحد العوامل التي أعانت على وراثة ذلك الكم الوفير من شعره، وهو الكم الذي شغل المديح مساحة فيه فرُمي صاحبه بأنه

(6) يُنظر ديوانه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(7) يُنظر ديوانه بتحقيق: محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ط3، 1399هـ/ 1979م).

(8) يُنظر ديوانه برواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، د.ط، 1390هـ/ 1970م).

(9) يُنظر ديوانه بتحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ط2، 1418هـ/ 1997م).

(10) يُنظر ديوانه بتحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، د.ط، 1385ه/ 1965م).

مدّاح يتكسب بشعره، ولو جاءنا ما قالت العرب وافراً – كما قال أبو عمرو بن العلاء– لربما تغير الحكم ،فغدا الأعشى كغيره من الشعراء الذين طرقوا فن المديح دون أن يكون طرقه هذا سبة عليه؛ لأنه مألوف عند من سبقوه، فلا يكون بسلوكه المدحي هذا سوى امتداد لمن سبقوه.

والواقع أن ركوب الشاعر مطية المديح بقصد العطاء لا يعد عيباً، لأنه في الحقيقة يبيع سلعة وهي الشعر، وليس يسأل الممدوح المال سؤالاً صريحاً، بل يقدم له مادة بيد، ويقبض منه ثمنها بيد أخرى، وبحسب جودة السلعة وتميزها تكون قيمة العطاء، وبهذا يتبين جور الصورة الذهنية المستقرة في الخيال التي ترسم الشاعر المادح في صورة سائل ذليل يمد يده بانكسار آملاً تفضل الممدوح عليه بالعطاء، إذ هو في الواقع كالتاجر الذي يقصد بسلعته أفراداً بأعيانهم تجتمع فيهم صفات توافق مقصده وتستجيب لهواه ولطبيعة السلعة المعروضة، والشاعر المادح لا يعرض بضاعته إلا على من يثق بتقديرهم إياها، والنتيجة مقررة لديه في الغالب قبل حصولها.

ولم تكن النتيجة التي ينتظرها الشاعر المادح ثناء مجرداً، أو إشادة من الممدوح بموهبته الشعرية، فلو كانت كذلك لما شغل المديح مساحة من ديوان الأعشى ولا ديوان الشعر العربي كله إلا ما استلزمته مناسبات خاصة، فالشاعر المادح لم يكن يهدف إلا للعطاء، وهو ما صرح به الأعشى بقوله:

وقد طفتُ للمالِ آفاقَه

عمانَ فحمصَ فأوريشلمْ

(الأعشى، د.ت : 77)

إلى آخر الأبيات، وهو كذلك ما أعلنه الشعراء بعده مؤكدين أن المال أحد أكثر الحوافز تأثيراً في إنتاج الشعر، فقد قيل للحطيئة – فيما يروي ابن قتيبة –: " أيُّ الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال هذا إذا طمع" (ابن قتيبة، 1966: 79). وفي السياق نفسه يروي ابن قتيبة أيضاً أن الحجاج سأل المساور بن هند الشاعر: "لِمَ تقول الشعر بعد الكبر؟ قال: أُسقى به الماء، وأُرعى به الكلأ، وتُقضى لي به الحاجة، فإن كفيتني ذلك تركته" (ابن قتيبة، 1966: 349). وفي خبر آخر يرويه أبو الفرج الأصبهاني في الحسين بن الضحاك الشاعر أنه أعلن صراحة بين يدي الخليفة الواثق بعد أن أنشده أبياتاً طرب لها في رحلة صيد له، أن سر جودته الشعرية لا يعود إلى حبه الخليفة، أو ولائه له، أو إعجابه بفعاله، أو حسن ولايته على الرعية، بل يعود إلى شيء واحد هو جود الخليفة الذي استثار لديه شهوة المال (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 7/ 116).

ولعل هذه الصراحة التي ربما جاوزت حدود الأدب بين يدي الخليفة لا تُستنكر، إذا علمنا أن المديح في عصور الخلافة الإسلامية انتقل انتقالاً كاملاً من مضارب القبيلة إلى بلاط القصور، فغدا مطية للتكسب، ووعاء تُسكب فيه الأبيات فتقدم للبيع على السلاطين والوجهاء، وساعد على اتساع ذلك كثرة الإمارات في عصور الخلافة، وتنافس القائمين عليها على الاستئثار بالشعراء، واستعانتهم على ذلك بإغرائهم بالمال ليسطروا أمجادهم، ويدوِّنوا مآثرهم التي قد لا يكونون متصفين بها في الحقيقة -وهذا هو الأغلب- بهدف إرضاء الذات، والرغبة في خلود السيرة وشيوع الذكر، وربما لأهداف أبعد أهمها التأميل في وصول تلك القصائد إلى أمير المؤمنين نفسه لتقريب هذا الأمير الممدوح، أو منحه ولاية أهم، أو سلطة أوسع.

وليته قُدِّر أن ينشأ الشعر العربي منذ بداياته الأولى متحرراً من قيد الارتباط الفعلي أو الضمني بالقبيلة، وليت المديح الهادف إلى التكسب لم يكن أمراً مستعاباً في عرف المجتمع يقيد حرية الشعراء ويحبس انطلاقهم في فنون القول، هذا مع أن هذه الاستعابة لم تكن قيداً ظاهراً على الشعراء لا في دواوينهم ولا في سيرهم منذ البدايات الأولى للشعر العربي؛ لأن شهوة المال كانت أشد دفعاً لهم من قيم المجتمع في باب الشعر، ولاسيما أن الحاجة إلى المال كانت ماسة جداً وخصوصاً تحت ضغط ظروف جزيرة العرب ومواردها الجافة. ولهذا ربما صح القول بأن الشعراء الذين انطلقوا في مسالك المديح عادوا بفضل كبير على تراثنا الشعري من ناحيتي الكم والنوع، أما الكم فيظهر في استجابتهم لإغراء المال بنظم المديح نظماً متزايداً أدى إلى غنى المدونة الشعرية وثرائها بالقصائد المنظومة في هذا الفن، ولولا التكسب لما ورثنا هذا الكم الشعري، وحسبنا أن نعلم أن ثمانية أعشار ديوان أبي تمام وكذا البحتري ومثله ابن الرومي إنما نُظمت في باب المديح (يُنظر: المناعي، 1998 :168) الذي لا تحركه في الغالب قوانين الصدق أو الإيمان الكامل باستحقاق الممدوح لكل ذلك المديح، بل لمراودة ماله وكفى.

وأما ناحية النوع، فإن الشاعر المادح كان يبالغ في الاجتهاد في تجويد صناعته الشعرية لتروق للممدوح فتسلب لبه فينجح في النهاية في الوصول إلى ماله، مثلما يصنع التاجر في تجويد بضاعته لتروق للمشتري وتأسر هواه فيصل في النهاية إلى هدفه وهو مال المشتري. وقد تقدم القول بأن الشاعر تاجر الكلمة، فهو يتاجر بشعره بيعاً على ذوي الجاه والسلطان، وما يهم من هذا هو فضل شعر المديح أو شعراء المديح على شعرنا

العربي من ناحية النوع بعد أن بدا فضلهم عليه من ناحية الكم، حيث كان الشعراء المداحون يُضنون أنفسهم في حياكة قصائدهم لتبلغ أعلى مراتب الجودة، وحسبهم بذلك فضلاً على ورثة هذا الشعر. ولعل أقوى دليل على جودة الشعر المدفوع بالرغبة في العطاء" أن الكثير مما احتفظت به الذائقة الفنية الجماعية، واهتمت به كتب الشواهد وكتب الأدب وكتب البلاغة – بل ربما أكثره – إنما هو من الشعر الذي كان وراء قوله حافز مالي، وقاله رموز شعراء التكسب" (المناعي، 1998 : 603).

وإلى جانب ما سبق فللأعشى كما لغيره من شعراء التكسب فضل على اللغة أيضاً بحفظ الكثير من ألفاظها وتراكيبها واشتقاقاتها في دواوين أشعارهم؛ لكون الرغبة في المال تدفع إلى ابتداع قول شعري يعمد إلى التجديد في الألفاظ وبناء الجمل أملاً في لفت انتباه الممدوح وشده نحو معجم فريد وبناء جديد لم يسبق له به عهد، ولم يكن من سبيل إلى هذا الإثراء اللغوي غير الشعر، وهكذا فإن "من شأن اللغة أن تزدهر حيث يزدهر الشعر، وتموت متى مات، فالشعراء هم الذين يمدون اللغة بأسباب النماء، ويمكِّنون لها بين الأحياء" (عبدالبديع، 1986 : 19). وإذا كان هذا القول ينسحب على الشعر عامة بكل فنونه، فإنه في باب المديح أدق وأدل، لكون جو المديح ومحركاته تتطلب مستوى من الجودة لا تتطلبه فنون الشعر الأخرى، لأنه قائم على دعامتي السبب والنتيجة، في حين أن فنون الشعر الأخرى في الغالب لا تتطلع إلى نتيجة من وراء القول كالغزل والوصف والرثاء والفخر أيضاً.

إذن مادام الشعر المدحي قد عاد بكل هذه المكاسب على المدونة الشعرية كماً ونوعاً، وأثرى معجم اللغة، ورفع مستوى الذائقة الأدبية، فلماذا يُنتقص الأعشى لتكسبه، وله – ولمن سبقوه في هذا الباب – كل هذا الفضل على ورثة الشعر[11]؟ وحتى لو سُلِّم جدلاً بأن الأعشى هو أول من تكسب بشعره، مع أن التاريخ يرفض هذا الحكم الذي أطلقه عليه ابن سلام، فإن النظر إلى نتيجة بل نتائج هذا التكسب تقلب حكم ابن سلام من سبة على الأعشى إلى مجد له، وتجعل هذه الأولية التي ينتقصه بها شرفاً له كشأن الأوائل في كل أمور الحياة المحمودة.

ويجدر التنبيه هنا على أن الأعشى وأضرابه ممن تكسبوا بشعرهم كانوا أجود الشعراء وأكثرهم تمكناً من الصناعة الشعرية، لأن لديهم قوة دافعة للتألق

(11) يُنظر في هذا الشأن: السعيد حامد شوارب، المدح في الشعر الجاهلي (القاهرة: أجيال للتسويق والنشر، ط2، 2008م)، ص 229.

الشعري لا توجد عند غيرهم من الشعراء، وهذا جعل المتكسبين بشعرهم هم أرفع الشعراء مهارة، حتى صار تميز غيرهم ممن لم يتكسب بشعره استثناء من هذه القاعدة، إذ " لا يمكن لمن رام أن يصبح شاعر تكسب إلا أن يكون شاعراً قديراً ، ... أما الشعراء الذين لم يمدحوا ولم يهجوا وكانوا مع ذلك فحولاً فهم قلة قليلة" (المناعي، 1998 : 633).

وبتصفح عِقْد قصائد الأعشى نجد مدائحه هي الأكثر بريقاً، والأبعد شهرة، والأحفل ببديع المعاني وفاخر الألفاظ، كقصيدته النونية في مدح قيس بن معد يكرب الكندي التي مطلعها:

لعمرك ما طولُ هذا الزمنْ

على المرءِ إلا عناءٌ معنّ

(الأعشى، د.ت : 51)

وكذا ميميته الشهيرة في مدحه أيضاً التي ضمَّنها الأبيات الشهيرة في شكوى ابنته من رحيله عنها:

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل

أرانا سواءً ومن قد يَتِمْ

أبانا فلا رمتَ من عندنا

فإنا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

(الأعشى، د.ت : 71)

إلى آخر الأبيات. وتشد النظر ببريقها أيضاً قصيدته الشهيرة في مدح المحلق الكلابي التي جاء فيها :

أبا مِسمعٍ سارَ الذي قد صنعتُمُ

فأنجدَ أقوامٌ بذاك وأعرقوا

وإن عتاقَ العيسِ سوف يزوركم

ثناءٌ على أعجازهنَّ معلَّقُ

وفيها أيضاً :

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ

إلى ضوءِ نارٍ في يَفَاعٍ تُحرَّقُ

تُشبُّ لمقرورين يصطليانها

وبات على النارِ الندى والمحلّقُ

(الأعشى، د.ت : 253)

وهي القصيدة التي روى أبو الفرج الأصبهاني بعض أبياتها مؤكداً جودتها بقوله: " فسار الشعر وشاع في العرب" (الأصبهاني، 1994 : 9/ 81)، ومعلوم أن السيرورة لا تكون إلا من حظ جيد الشعر.

وتلمع في عِقْد قصائد الأعشى أيضاً مدحيته في إياس بن قبيصة الطائي التي افتتحها بقوله:

عرفتَ اليوم من تيّا مُقاما

بجوٍّ أو عرفتَ لها خياما

فهاجتْ شوقَ محزونٍ طروبٍ

فأسبلَ دمعَه فيها سجاما

(الأعشى، د.ت : 231)

وفيها أبيات استوقفت الشاعر الأخطل –وكان في مجلس عبدالملك بن مروان– فطارت بلبه حتى شهد للأعشى بالبراعة والتفوق على الشعراء كافة بقول تكفي بالإحالة عليه لخروجه عن حدود الأدب (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 85).

ومدح الأعشى سلامة ذا فائش بقصيدة أعطاه عليها مئة من الإبل، وكساه حلاً، وكرشاً مدبوغة مملوءة عنبراً (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 86)، وغالباً ما تكون قيمة العطاء مساوية للقيمة الفنية للقصيدة ومدى استحكامها على قلب الممدوح.

وبتأمل تلك القصائد الجياد يتجلى لنا فضل المديح على الأعشى بدفعه نحو الإبداع الشعري، وفضل الأعشى على مدونة الشعر الجاهلي بإيداعها هذه القصائد التي لولا تكسبه لكانت غائبة عن ديوان شعرنا القديم. ولذا لا يصح تلقّي الأعشى شخصية وشعراً بانتقاص لكونه سأل بشعره، لأنه في الواقع لم يكن يسأل سؤالاً مجرداً قائماً على الأخذ أو مدّ اليد، بل كان يعطي ثم يأخذ، ولا نبالغ لو قلنا إن عطاءه كان يفوق أخذه، لأنه لم يكن يقدم بين يدي حاجته إلا فاخر الشاعر وأجزله، بأبيات يتمنى كل شاعر نسبتها إليه لو استطاع ذلك، وحسبنا دليلاً على تفوق عطائه على أخذه أن الزمن لم يحفظ إلا عطاء الأعشى لممدوحيه في حين ضاع كل ما قبضه منهم ، وهذا نص ما قاله عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لبعض ولد هرم بن سنان ممدوح الأعشى: "ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم" (ابن قتيبة، 1966: 144).

ولقد حمل سياق هذا البحث على التعريج على مسألة مهمة غابت عن كثير – أو عن كل– من تناولوا الأعشى وشعره، وخصوصاً مسألة مديحه وتكسبه به، وهي نقطة مركزية تفتح لمن يقف عليها أُفقاً واسعاً في فهم جانب من مديح الأعشى وسبب اشتغاله به، بل ربما تضع اليد على السر الذي جعل الأعشى يسلك درب المديح، وحين يُربط السبب بالنتيجة يكون الحكم على الظواهر أكثر دقة وموضوعية من إطلاق الحكم عليها اكتفاء بالنظر إلى النتيجة فقط.

وهذه الناحية هي في الحقيقة ناحية بالغة الاستتار في شخصية الأعشى وفي شعره، ولا تكشف عن نفسها بالنظرة العجلى لديوانه أو التأمل السريع في بعض قصائده، لأنها نقطة يصعب التنبّه لها إلا عند قراءة الديوان كاملاً، قراءة عميقة متأملة، عندها يكتشف المتأمل هماً يعانيه الأعشى يتردد في عدد من قصائده بنبرة مستترة تتردد بين الإيحاء والتصريح.

وبيان ذلك هو أن الأعشى يطوي في داخله هماً مؤرقاً يمكن وصفه بأنه غربة اجتماعية، وهي غربة

جعلته نادّاً على نسيج مجتمعه، غير منضوٍ فيه، ولا متجانس معه، ربما لعجزه عن استثمار مكانته الشعرية في تحقيق مكانة قبلية، مع شعريته المتميزة التي كانت تهيئه لتبوّء مكانة عليا، وهذه الميزة الشعرية لديه هي التي جعلت قريشاً تجتهد لصده عن الإسلام، بدليل قول أبي سفيان لقومه وهو يدعوهم لجمع مئة ناقة حمراء له ليغريه بها للعدول عن عزمه على الإسلام: "يا معشر قريش، هذا أعشى قيس، وقد علمتم شعره، ولئن وصل إلى محمد ليضربن عليكم العرب قاطبة بشعره"(ابن قتيبة، 1966: 257). وفي رواية أخرى " ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره" (الأصبهاني، 1994 : 9/ 87).

هذا جانب محتمل في تفسير سبب غربته، وهناك جانب آخر ينطلق من أن المكانة الاجتماعية للأعشى لم تكن مكانة تُحمد، فموهبته الشعرية الرفيعة ومنزلته الاجتماعية الوضيعة سببت له خللاً انعكست آثاره على علاقته بمجتمعه وأفراده، وقد تبدّى هذا الجانب من تقليب النظر في عدد من المرويات حتى صار راجحاً، أولها الإعاقة البصرية التي كان يعانيها وبسببها لُقِّب بوصف الأعشى، وهذا نقص خلْقي لازمه طوال حياته. وثانيها الطريقة التي مات بها والده فعُيِّر بها، إذ يُروى أنه "دخل غاراً يستظل فيه من الحر، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعاً " فقال فيه جهنام يعيره:

أبوك قتيلُ الجوع قيسُ بنُ جندلٍ

وخالُك عبدٌ من خماعة راضع

(الأصبهاني، 1994 : 9/ 75).

وثالث المرويات التي ترجح ضعف روابط الحياة الاجتماعية للأعشى ما رواه أبو الفرج الأصبهاني بقوله: "كانت عند الأعشى امرأة فأتاها قومها فضربوه، وقالوا: طلقها. فقال:

أيا جارتا بيني فإنكِ طالقهْ

كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقهْ

(الأصبهاني، 1994 : 9/ 84).

وفي هذا الخبر يظهر الأعشى في صورة الشخصية الضعيفة المفتقرة إلى المهابة والجلال افتقاراً كبيراً أدى إلى الاجتراء عليه بهذه الصورة المهينة. وآخر ما وقفت عليه من الشواهد في هذا السياق هو صورة المرأة التي كان الأعشى يرتبط بها عاطفياً، فقد كان اختياره للعشيقة أمراً مستغرَباً، ربما لضيق الخيارات أو انعدامها أمامه، بسبب ضعف بصره، وتدنِّي قيمته، فقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني أن "هريرة التي يشبب بها الأعشى أمة سوداء لحسان بن عمرو بن مرثد" (الأصبهاني، 1994 : 9/ 79).

هذه شواهد التاريخ، أما شواهد شعر الأعشى نفسه فتؤكد تلك المرويات، إذ اشتكى في عدد من المواضع من مواقف اجتماعية تؤرقه كإعراض الناس عنه، وتنكّرهم له، وتعاملهم معه بغلظة وفظاظة، يقول في إحدى قصائده:

تيمَّمتُ قيساً وكم دونـه
من الأرض من مهْمهٍ ذي شزنْ
ومن شانئٍ كاسفٍ وجهُهُ
إذا مـا انتـسبتُ له أنـكرنْ
ولـكن ربي كفى غربتي
بحـمـدِ الإله فقـد بلَّغـَنْ
أخا ثقـة عالياً كعـبُهُ
جـزيلَ العـطاء كـريمَ المننْ
(الأعشى، د.ت : 55)

ويقول في قصيدة أخرى:

وكم دون بيتكَ من معشرٍ
صُـباة الحـلوم عُـداة غُشُمْ
إذا أنا حييتُ لم يرجعـوا
تحـيتهـم وهُـمُ غـير صُمْ
(الأعشى، د.ت : 73).

وفي موضع آخر يقول:

وكم دون ليلى من عدوٍ وبلدةٍ
وسَهْبٍ به مستوضحُ الآلِ يبرُقُ
(الأعشى، د.ت : 259).

ويقول في مقطع غزلي واصفاً عشيقته:

مليكية جاورتْ بالحجا ...
زِ قوماً عُداة وأرضـاً شطـيرا
(الأعشى، د.ت : 129).

هذه الشواهد وغيرها تجلي لنا طرفـاً مـن الأرضـية الاجتماعية المتصدعة التي يقف عليها الأعشى بسـبب تخرُّق نسـيجه الاجتماعـي بكثـرة الأعـداء، وخشـونة القول عليه، وفظاظة التعامل معه، وهـذا الـنمط مـن الحياة من شأنه أن يورث اضطراباً في الشخصية ورغبة في الانسحاب من هذا الواقع وتبديله.

ولم تكن كثرة الأعداء هي كل شيء، فقد كان الأعشى فيما يبدو يعاني غربة اجتماعية حتى داخل قومه، وهذه أشق من سابقتها وأشد تأثيراً، وقد صرَّح بهذا الهم المؤرق على لسان ابنته حين كان يتهيأ للرحيل بخطاب يرشح حزناً وألماً، ويحمل على التعاطف معه:

تقولُ ابنتي حين جدّ الرحيل
أرانا سـواءً ومـن قد يَتِمْ
أبانا فلا رِمْـتَ من عندنا
فـإنـا بخيـرٍ إذا لم تَـرِمْ
أرانا إذا أضمرتكَ البـلا ...
دُنُجـفى وتُقطعُ منا الرحمْ
(الأعشى، د.ت : 77).

ويؤكد الأعشى هذا المعنى في قصيدة أخرى مشيراً في سياق مديحه إلى أن ناقته، وهي المعادل الموضوعي له، قد زهدت في ديار قومه باليمامة، وعافت الشرب من حياض أهلها، في إشارة صريحة إلى صدع أو ربما تهدم اجتماعي يعانيه، يقول:

تجانفُ عن جلِّ اليمامةِ ناقتي
وما قصدتْ من أهلِها لسوائِكا
ألَمَّتْ بأقوامٍ فعافتْ حياضَهم
قلوصي وكان الشربُ منها بمائِكا
(الأعشى، د.ت : 127).

وقد انعكست آثار هذا الاختلال الاجتماعي في حياة الأعشى على معاني قصيدته المدحية فتكرر عنده تكرُّراً لافتاً وصف ممدوحيه بحماية الجار، وتوفير الأمن للنازلين بهم، في إشارة خفية إلى حاجة نفسية لديه تصيح في داخله أملاً في التمتع بحياة آمنة مطمئنة لا يكدرها قلق أو عداء أو صراع، كقوله في هوذة الحنفي:

طويل النجاد رفيع العما ... د
يحمي المضاف ويعطي الفقيرا
(الأعشى، د.ت : 133).

وقوله في قوم هوذة في سياق مديحه إياه في قصيدة أخرى :

قوم بيوتهم أمن لجارهم
يوماً إذا ضمّتِ المحذورة القزعا
(الأعشى، د.ت : 143).

ويكرر المعنى ذاته في مديحه للمحلق الكلابي:

طويل اليدينِ رهطُه غير ثِنْية
أشمُّ كريمٌ جارُهُ لا يُرهَّقُ
(الأعشى، د.ت : 261).

ونقع عليه أيضاً في مديحه لقوم قيس بن معد يكرب:

الرّفيئين بالجوار فما يُغتالُ
جارٌ لهم بظهرِ المغيبِ
(الأعشى، د.ت : 369).

وبعد هذه النصوص المنطوقة بلسان الأعشى نفسه، وتلك المرويات التاريخية التي مرتْ سابقاً، ربما صار مترجحاً لدينا أن الأعشى كان يعاني تصدعاً اجتماعياً وخللاً في نسيج التئامه مع محيطه ومن حوله، والنتيجة الطبيعية لهذا التنافر الاجتماعي تتخذ واحداً من مسارين اثنين: إما الانغلاق على الذات، أو الانطلاق لتغيير هذا الواقع بهدف إعادة بناء النفس وتحقيق وجودها، وهذا المسار الثاني هو الذي اختاره الأعشى مدفوعاً بما يمتلكه من موهبة شعرية يمكن أن تصنع له مجداً يفتقده داخل محيطه الاجتماعي، ولذا

راح يستثمر موهبته هذه في المديح الهادف إلى تحصيل المال الذي به يتحقق وجود الذات، ويلتئم صدعها، بل - وهذا يحصل غالباً- يتحول انفصام المجتمع عنها إلى التفاف عليها وتبجيل لها بفعل ما استجد لها من الثراء. هذا ربما ما اعتقده الأعشى، فكان أحد المحركات التي دفعته نحو التكسب ليصنع له قيمة يفتقدها، ومكانة يرى نفسه حقيقاً بها.

ولقد تعززت رغبة الأعشى في المديح وتضاعفت قوة تمسكه بالتكسب به بعد أن رأى ذلك المستوى الرفيع من الحياة البهية المرفهة في قصور الملوك وذوي الجاه والسلطان الذين كان يقصدهم، وهو ما لم يتعود عليه من قبل أو يألف رؤيته، بل وربما لم يره ولو مرة واحدة في موطن إقامته بديار قومه، إذ كانت حياة العرب في جزيرتهم - كما تقدم القول- عسيرة ضنكة عارية من صور اللهو والترف ومظاهر البهجة والثراء؛ لأن الناس في الجزيرة لم يكونوا منشغلين بغير التعلق بالبقاء ومقاومة أسباب الفناء كالجوع والقحط والمسغبة والجفاف، وفي مثل هذه الظروف لا يكون الترف حاضراً في حياة قوم يهددهم الموت وأسبابه، ولهذا كانت حياة الملوك ومظاهرها في عيني الأعشى مشهداً جديداً أصابه بالدهشة فتعلق به، وصارت نفسه تحمله دائماً على معاودة زيارة الملوك، وخصوصاً أن موهبته الشعرية تعينه على ذلك، وتجعل زيارته إياهم زيارة ذات معنى، وخصوصاً أنه لا يقصدهم خالي اليدين، بل يقدم لهم ضرباً رفيعاً من القول تفنن في صوغه وحوكه، وكان من نتائج ذلك أن غدا ديوانه نافذة يمكن عبرها الاطلاع على جانب من الحياة في تلك القصور، فقد صور الأعشى ما فيها من مجالس الشرب والغناء وأشكال السقاة، وما ينتشر فيها من أنواع الورود والزهور، وهذا يؤكد تعلقه بتلك القصور ومظاهر الحياة فيها، ويقدم من زاوية أخرى تعليلاً إضافياً لكثرة مدائحه وغشيانه بلاط ذوي الجاه والسلطان. ومن المؤكد أن تلك المظاهر الرفيعة للحياة قد وافقت هوى في نفس الأعشى المشهور بلهوه ومجونه وتهتكه، فكانت موجودات تلك المجالس خير رواء لنفسه الظامئة[12].

تلك هي الدوافع التي حركت الأعشى نحو المديح والتكسب به، يضاف إليها النزعة الفطرية في الإنسان لطلب المال والاستكثار منه، وهنا يبقى تساؤل مهم عن شخصية الأعشى لحظة مديحه، إذ إن الحديث السابق كله كان يتناول الأعشى قبل لحظة المديح، ويعرض الأسباب والمحركات، ويبحث في الأعشى نفسه، ويفتش في نسيجه الاجتماعي، وطبيعة بيئته

(12) تُنظر على سبيل المثال في ديوانه القصيدة 55، ص 329 .

ومستوى العيش فيها، وجوانب أخرى مضى الحديث فيها. وهنا نصل إلى لحظة النشيد التي يقف الأعشى فيها بين يدي ممدوحه بنصه التكسبي لنرى إن كان يرمي بنفسه بين يدي الممدوح ملحِفاً في المسألة، متلهفاً على المال، مصرحاً بالطلب، مهمِّشاً في سياق كل ذلك ذاته وكيانها، واطئاً كرامتها، أم كان يحتفظ لنفسه بقدر من الكرامة، فلا يُظهِر التهالك على المال أو يصرح بالطلب، بل يسأل بضرب من القول يتسم بالترفع والأدب، متخذاً التعريض لا المباشرة طريقه إلى ذلك؟

إن التأمل الدقيق في مدائح الأعشى يكشف أنها ليست انكباباً بين يدي الممدوح لسؤال ماله أو رفده، بل هي في الواقع نمط شعري فريد لا يحتل المديح إلا جزءاً منها يطول أو يقصر حسب نَفَس الأعشى وطبيعة الموقف وحال الممدوح، ويوازي هذا المقطع حيناً ويقل عنه أحياناً مقدمة يسطر فيها الأعشى أمجاده وبطولاته، واصفاً جانباً من مغامراته العاطفية السابقة، وجرأته على اقتحام خدور النساء، واجتياز الحواجز المضروبة عليهن، ثم معلناً عن ترفعه في لحظة الإنشاد عن تلك الحياة العابثة اللاهية التي لا يراها اليوم – لحظة الإنشاد – منسجمة مع عقله وحكمته وسنه [13].

ويتباهى في بعض مدائحه بشربه أجود أنواع الخمر وأصفاها[14]، ويتحدث عن بطولاته في الصحراء وقدراته على اختراق امتدادها المفزع، واعتساف ظلماتها المخيفة، والانتصار على عزيف جنها وصياح بومها[15]. ويحرص أيضاً على الإشارة إلى نجابة ناقته وفرادتها وأنها تفوق غيرها حسناً وقوة[16]، إنه باختصار "يعمد إلى المفاخرة بالعشق والصبابة وبالخمرة والانتشاء والارتحال واختراق الآفاق رفعاً من قيمة نفسه وارتقاء بها عن حدود المنزلة العادية للبشر العاديين" (الواد، 2001 : 130–131). وهذا

(13) يُنظر: ديوانه، القصيدة 1، ص 39، الأبيات (10–17). والقصيدة 2، ص 51، الأبيات (16–22). والقصيدة 3، ص 63، الأبيات (1–8). والقصيدة 5، ص 81، الأبيات (6–9).

(14) يُنظر: ديوانه، القصيدة 3، ص 63، البيت (9). والقصيدة 4، ص 71، الأبيات (10–12). والقصيدة 5، ص 81، الأبيات (12–16).

(15) يُنظر: ديوانه، القصيدة 2، ص 51، الأبيات (23–25). والقصيدة 3، ص 63، الأبيات (11–12). والقصيدة 4، ص 71، البيت (15) والبيت (23). والقصيدة 8، ص 105، الأبيات (39–41). والقصيدة 11، ص 125، الأبيات (5–8). والقصيدة 12، ص 129، الأبيات (30–33).

(16) يُنظر: ديوانه، القصيدة 1، ص 39، الأبيات (18–32). والقصيدة 2، ص 51، الأبيات (23–28). والقصيدة 3، ص 63، الأبيات (12–17). والقصيدة 4، ص 71، الأبيات (15–19). والقصيدة 5، ص 81، الأبيات (17–23). والقصيدة 11، ص 125، الأبيات (8–13).

المنحى في مدائح الأعشى لا يتفق مع الصورة الذهنية للشخصية التي تتعرض لسؤال الناس، إذ تبدو هذه الشخصية دائماً ذليلة بائسة منكسرة بلا قيمة ولا كرامة، بل وتحرص هذه الشخصية على تأكيد هذه الصفات فيها بالقول والفعل والصورة للنجاح في استعطاف المسؤول وكسب ماله، أما الأعشى فلم يكن سائلاً بشعره بالمعنى المعروف للسؤال، ولا بادياً في أي صفة من صفات السائل، بل كان معتدّاً بذاته وقيمته وكرامته، بل وتميز عالمه الشخصي بجوانبه العاطفية والخمرية والارتحالية والبطولية داخل جوف الصحراء الرهيب، كل ذلك ربما ليظهر في صورة "لا تنأى كثيراً عن منزلة الممدوح حتى يستحق المثول بين يديه، ويمكن له أن يرفع في حضرته صوته بالإنشاد " (الواد، 2001 : 137).

وينتهي الأعشى بعد كل هذا الفخر الذاتي وتمجيد الأنا إلى مقطع المديح، وفيه لا يبدو – في الغالب – نازعاً إلى سؤال العطاء بأسلوب مباشر، بل يكتفي بإسناد غالب السمات ورفيع السجايا المبجلة عند العرب إلى الممدوح، كالوفاء والصدق وحماية الجار والحكمة وسداد الرأي والشجاعة وقوة آلة الحرب وكمالها، بالإضافة إلى أهم صفة يُرجِّي الأعشى عملها في نفس الممدوح وهي صفة الكرم. واللافت في مديح الأعشى أنه حين يصف بالكرم لا يسأل العطاء، هذا ما وجدته من استقراء كل نصوصه المدحية إلا في موضعين اثنين فقط، وهما لا يكسران القاعدة بل يقويانها إذا علمنا أن مجموع قصائده المدحية الصحيحة المكتملة تبلغ ستاً وعشرين قصيدة، فالأعشى حين يمدح بالكرم يكتفي بالإشادة بسعة كرم الممدوح وشمول عطائه، ويميل أحياناً إلى وصف العطية محلِّقاً بها إلى أعلى الصفات وأكملها سواء أكانت خيلاً[17]، أو إبلاً[18]، أو نساء فائقات الحسن[19]. وهذا المسلك مهارة منه في المديح، وإرضاء لعز الممدوح ورفيع منزلته بالتأكيد أن عطاءه نمط سامٍ لا يطيقه إلا من كان في مقامه، وهو من زاوية أخرى تعريض بالطلب بأسلوب لا يسِفُّ بالذات أو يمرغها في وحل السؤال المباشر ،بل يحفظ لها كرامتها مع جلب مرادها. وعلى هذا النمط كانت كل مدائح الأعشى التي لم تكن مديحاً بالكرم فحسب، بل كانت ديواناً للأخلاق الرفيعة والسجايا المصطفاة عند

(17) يُنظر: ديوانه، القصيدة 2، ص 57، الأبيات (40-51). والقصيدة 3، ص 63، البيت (26). والقصيدة 4، ص 75، الأبيات (41-45). والقصيدة 5، ص 89، الأبيات (60-61).

(18) يُنظر: ديوانه، القصيدة 3، ص63، البيت (25).

(19) يُنظر: ديوانه ق1، ص 45، البيت (47). والقصيدة 2، ص 57، البيت (52).

العرب، وما كان المديح بالكرم وجزالة العطاء إلا جزءاً في قائمة تلك السجايا، وهذا يعني أن وصف الأعشى بأنه يسأل بشعره وصف ربما لا يكون دقيقاً بعد استقراء مدونته المدحية، لأنه في الواقع لم يكن يسأل، بل كان يتعرض بشعره للمال تعرضاً يحفظ كرامته، وهذا الرأي لا يدفع أنه كان يستفيد من شعره، إلا أن استفادته منه إنما كانت بالتكسب لا بالسؤال، وبين اللفظين فرق كبير، ومادام متكسباً فلا عيب عليه في ذلك، ولاسيما حين نضع هذه الصورة في إطار ما تحدثنا عنه سابقاً عن شخصية الأعشى، وتاريخ مرحلته، وواقعه الاجتماعي، ودوافع المديح لديه.

ومما يستوقف المتأمل في مدائح الأعشى أن تحاشيه التصريح بطلب المال بين يدي كل الشخصيات التي مدحها في ديوانه يغيب عند وقوفه أمام شخصية واحدة هي شخصية هوذة بن علي الحنفي، إذ كان مع هذه الشخصية تحديداً يسأل المال بمستوى من الصراحة لا يبدو – ولا قريباً منه – في كل مدائحه التي قالها لممدوحيه الآخرين كالأسود بن المنذر اللخمي، وقيس بن معديكرب، وسلامة ذي فائش، وعامر بن الطفيل، والملك النعمان بن المنذر، وغيرهم، فمع كل هؤلاء كان التعريض بالمال طريقه، أما مع هوذة فكان يصرح بالطلب إلى الحد الذي يقول فيه:

إلى هوذة الوهاب أهديتُ مدحتي
أرجِّي نوالاً فاضلاً من عطائكا
(الأعشى، د.ت : 125).

وله يقول أيضاً من القصيدة نفسها:

سمعتُ بسمع الباعِ والجودِ والندى
فأدليتُ دلوي فاستقتْ برشائكا
(الأعشى، د.ت : 125)

ومع ذلك، فإن هذا المستوى من صراحة الطلب لم يبدُ إلا في هذه القصيدة فقط من بين قصائده الأربع التي نظمها في مديح هوذة[20]، وربما يكون سر هذه المكاشفة بين الأعشى وهوذة يعود إلى اجتماعه وإياه في قبيلة واحدة هي بكر بن وائل، واجتماعهما أيضاً في موطن واحد هو اليمامة، وهو الأمر الذي –ربما– جعل الأعشى يشعر أنه بين يدي رجل من قومه، وأن تكاتف هوذة معه ومساندته إياه أمر واجب عليه بإملاء رابطة النسب، ولذا فلا حاجة إلى التعريض بالمال أو ستر الطلب بذلك الغطاء الذي يميل إليه دائماً حين يقف على بلاط ملوك اليمن أو غيرهم.

ولاستيفاء هذه القضية – قضية التصريح بسؤال المال– أشير إلى أبيات أخرى أنشدها الأعشى في نهاية قصيدة مدحية طويلة بين يدي قيس بن معد يكرب، يقول فيها:

(20) يُنظر: ديوانه، القصائد: 7 و 11 و 12 و 13.

ونُبِّئـتُ قيـساً ولم أبلُـهُ
كما زعموا خيرَ أهلِ اليمنْ
فجئتُـكَ مـرتادَ ما خبَّروا
ولولا الذي خبَّروا لم ترنْ!!
فلا تحـرمنِّي نداكَ الجـزيل
فإني امرؤٌ قبـلكم لم أُهنْ
(الأعشى، د.ت : 61).

فالأعشى هنا يصرح بالسؤال، إلا أنه تصريح لا تخطئ فيه عند التأمل ملامح الفكاهة والمزاح مع الممدوح لبعث جوٍّ من الألفة بقصد اصطياد قلبه بمثل هذا الضرب من القول المبني على التبسُّط والممازحة، هذا بالإضافة إلى أن التصريح بطلب المال " أمر يكون ضمنياً عند بعض الشعراء، وظاهراً عند البعض الآخر، وينكشف غالباً عند اتصال الشاعر بممدوحه عند المرة الأولى" (المناعي، 1998 : 504)، وهذه القصيدة هي أولى قصائد الأعشى في قيس بن معديكرب، ولذا ربما يكون هذا هو علة تصريحه بالطلب، إلا أنه مع ذلك لم يكن تصريحاً غليظاً فجاً، بل رقيقاً يحمل الممدوح على التبسم.

وما يجدر التنبيه عليه هو أن إدراج الأعشى صفة الكرم في قائمة السجايا التي يلبسها ممدوحيه أمر لا غنى له عنه حتى ولو لم يكن قاصداً المال من وراء مديحه، لأن الكرم هو أحد أبرز صفات العرب السامية وأشهرها، وهي تبعث إحساساً بالرضى لدى كل من تطلق عليه؛ لأن النفس بطبيعتها تحب أن تكون كذلك، وأن يتحدث الناس عن كرمها حتى ولو لم تكن متصفة بذلك على الحقيقة، ولذا فإن المدح بالكرم مكوِّن رئيس في معمار القصيدة المدحية سواء أكانت هادفة إلى المال أم لا.

ولقد كان المنتَظر أن يبدو الأعشى بعد مدائحه العديدة، وكثرة غشيانه الملوك ومثوله بين يدي السلاطين، ثرياً ذال مال، أو منادماً للملوك، أو واحداً من جلسائهم وخاصتهم، إلا أني لم أجد خبراً واحداً يدل على ذلك البتة، فالأعشى في كتب الأدب والتاريخ والتراجم يبدو رجلاً يعيش حياة بسيطة كحياة العامة بلا أي مؤشرات على وجاهة أو ثراء، كما مرت الإشارة إلى هذا سابقاً عند الحديث عن شخصيته، وهذا يطرح تساؤلاً عن جدوى مدائحه عليه، والنهاية التي أوقفه عليها طريقه التكسبي. ويزداد إلحاح هذا التساؤل بموازنة الأعشى مع غيره من الشعراء الذين سبقوه في باب التكسب، كالنابغة مثلاً الذي يروي عنه أبو الفرج الأصبهاني أنه " كان كبيراً عند النعمان، خاصاً به، وكان من ندمائه وأهل أنسه" (الأصبهاني، 1994 : 11/ 8). ويروي ابن قتيبة أنه " كان مع النعمان بن

المنذر، ومع أبيه وجده، وكانوا له مكرِمين" (ابن قتيبة، 1966: 164). وتروي كتب التاريخ والأدب أنه " كسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيها من عطايا الملوك" (الألوسي، د.ت : 3/ 91).

وهذا زهير بن أبي سلمى- الذي سبق الأعشى في باب التكسب بالمديح- كان فيما يروي أبو الفرج " سيداً كثير المال" (الأصبهاني، 1994 : 10/ 457). وكذلك فإن غشيان الملوك والتردد عليهم جعل كلاً من المتلمس الضبعي وطرفة بن العبد نديمين للملك عمرو بن هند، كما يروي ابن قتيبة (يُنظر: ابن قتيبة، 1966: 181). ومع جودة مديح الأعشى، وكثرة مدائحه لأشخاص بأعيانهم كقيس بن معد يكرب الذي أنشأ الأعشى فيه تسع قصائد، وإياس بن قبيصة الطائي الذي صنع فيه خمس قصائد، وهوذة الحنفي الذي مدحه بأربع قصائد، فإنه لم يكن -حسب ما وقفت عليه من كتب الأدب والتاريخ- مقرَّباً عند أي واحد منهم، أو ذا حظوة عنده، هذا مع كثرة مثوله بين أيديهم مادحاً، وهذا يحمل على الظن أنه كان مفتقراً في تكوينه الخَلْقي أو النفسي- أو السلوكي إلى الصفات التي تقرِّبه إلى ممدوحيه، وتجعل له قبولاً عندهم، وتحملهم على مجالسته ومنادمته، وما يرجح هذا أن الأعشى -حسب التاريخ- لا يظهر في قصور السلاطين إلا لحظة الإنشاد فقط، وبعدها يختفي من المشهد تماماً، وكأنه صاحب بضاعة يسلمها للمشتري ويرحل بعدها مباشرة بعد أن يقبض الثمن.

هذا على المستوى الشخصي، أما على المستوى الفني فإن الأمر مختلف كل الاختلاف، إذ يظهر الأعشى في أقوال النقاد وآرائهم في أعلى المراتب وأسناها، حتى إن النصوص المروية في تفضيل شعره ربما لم تجتمع لشاعر سواه، فهذا أبو عمرو بن العلاء يقدمه على غيره من الشعراء (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 76)، ومروان بن أبي حفصة يجعله أشعر الناس (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 76)، وحماد الراوية يعطيه الحكم نفسه (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 76-77)، والأخطل يقدمه على الشعراء جميعاً (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 85)، أما يحيى بن الجون العبدي راوية بشار بن برد فيحكم له بأنه أستاذ الشعراء في الجاهلية (يُنظر: الأصبهاني، 1994 : 9/ 78)، وأبو الفرج الأصبهاني ينص على تقدُّمه على سائر شعراء الجاهلية وفحولهم (الأصبهاني، 1994 : 9/ 75)، ويقول فيه البغدادي بعد أن ساق شاهداً من شعره على مسألة نحوية واعتراض بعض النحاة عليه: "ومن خطَّأ الأعشى في لغته التي جُبل عليها - وشعره يُستشهد به في كتاب الله تعالى- فقد شهد على نفسه بأنه

مدخول العقل، ضارب في غمرة الجهل" (البغدادي، 1997 : 3/ 436).

وإنما كان اختيار هذه النصوص المنقولة عن العلماء بالشعر وصُنّاعه في هذا الموضع تحديداً لتكون خاتمةً لهذا البحث، يخرج بها القارئ بانطباع رفيع عن الأعشى (أستاذ الشعراء في الجاهلية)، وهو انطباع قد تأسست دعائمه بما سبق نقاشه في هذه الدراسة من تحقيق مسألة الأولية في سؤاله بشعره، وبيان تعارضها مع التاريخ الشعري والأدبي، والاستدراك على وصف الأعشى بـ (السائل) بشعره، إلى وصفه بـ (المتكسب) به، لأنه في الواقع كان يظهر في لحظة الإنشاد في شخصية بعيدة كل البعد عن سمات شخصية السائل، ولو كان ممن يلحف في المسألة بشعره، أو يدنس كرامته باستجداء العطاء، أو كان هو من شق للشعراء طريق السؤال بالشعر- كما حكم عليه بذلك ابن سلام- لما اجتمعت كل تلك الطائفة من المرويات النقدية في تفضيله وتقديمه على كل الشعراء.

ومن المؤمَّل أن يكون هذا البحث قد أفلح في التنبيه على أهمية الحذر من قبول الأحكام النقدية بالتسليم المطلق، أو افتراض موضوعيتها وبراءتها من العوامل الذاتية مهما كانت هوية من صدرت عنه، أو منزلته العلمية، وهو الأمر الذي تجلَّى من تحليل حكم ابن سلام على الأعشى بأنه أول من سأل بشعره، إذ ترجَّح لنا بعد تحقيقه أنه ينطلق من ظروف النزاع بين البصرة والكوفة، وأنه يخدم توجُّهات ابن سلام، ولا يتفق مع الشروط الموضوعية.

المصادر والمراجع

- **الأصبهاني**، أبوالفرج علي بن الحسين (ت 356ه)، الأغاني (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1414هـ/ 1994م).
- **الأعشى**، ميمون بن قيس، ديوانه، تحقيق: محمد محمد حسين (بيروت: المكتب الشرقي للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت).
- **الألوسي**، السيد محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).
- **أوس بن حجر**، ديوانه، تحقيق: محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر، ط3، 1399ه/ 1979م).
- **البغدادي**، عبدالقادر بن عمر (ت 1093ه)، خزانة الأدب، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط4، 1418ه/ 1997م).
- **بلاشير**، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: إبراهيم الكيلاني (بيروت: دار الفكر المعاصر، د.ط، 1419ه/ 1998م).

- **الجمحي**، محمد بن سلام، (ت 231ه)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر (جدة: دار المدني، د.ط، د.ت).

- **ابن خلكان**، أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت 681ه)، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د.ط، د.ت).

- **زهير بن أبي سلمى**، ديوانه، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د.ط، 1384هـ/ 1964م، "نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب").

- **السجستاني**، أبوحاتم سهل بن محمد (ت 255ه)، فحولة الشعراء، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط1، 1411هـ/ 1991م).

- **السيوطي**، جلال الدين عبدالرحمن (ت 911ه)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، د.ت).

- **شوارب**، السعيد حامد، المدح في الشعر الجاهلي (القاهرة: أجيال للتسويق والنشر، ط2، 2008م).

- **عبدالبديع**، لطفي، عبقرية العربية، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، ط2، 1406ه/ 1986م).

- **ابن عبد ربه**، أحمد بن محمد (ت 328ه)، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين ورفاقه (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت).

- **عروة بن الورد**، ديوانه، صنعة أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، تحقيق: محمد فؤاد نعناع (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1415ه/ 1995م).

- **العسكري**، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت 395ه)، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، 1406هـ/ 1986م).

- **العسكري**، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت 395ه)، ديوان المعاني، (القاهرة: مكتبة القدسي، د.ط، د.ت).

- **علي، جواد**، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط2، 1413ه/ 1993م).

- **عمرو بن قميئة**، ديوانه، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، د.ط، 1385ه/ 1965م).

- **ابن قتيبة**، عبدالله بن مسلم (ت 276ه)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر (القاهرة: دار المعارف، د.ط، 1966م).

- **ابن قتيبة**، عبدالله بن مسلم (276ه)، المعاني الكبير، تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى اليماني (حيدر آباد: مطبعة

مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1368هـ / 1949م).

- **القيرواني**، الحسن بن رشيق (ت 456ه)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: النبوي عبدالواحد شعلان (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1420هـ/ 2000م).

- **المتلمس الضبعي**، ديوانه برواية الأثرم وأبي عبيدة عن الأصمعي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، د.ط، 1390ه/ 1970م).

- **المثقب العبدي**، ديوانه، تحقيق: حسن كامل الصيرفي (القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ط2، 1418ه/ 1997م).

- **المرزباني**، محمد بن عمران (ت 384ه)، معجم الشعراء، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ط، د.ت).

- **المناعي**، مبروك، الشعر والمال (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1419ه/ 1998م).

- **النابغة الذبياني**، ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ط3، د.ت).

الواد، حسين، جمالية الأنا في شعر الأعشى الكبير (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط1، 2001م).